السُّخرية
عن طريق الشَّخصيات في كتاب صيد الخاطر

إعداد :
أ / نورة حميد حمدي الكبكبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص :

يناقش هذا البحث السخرية عن طريق الشخصيَّات في كتاب صيد الخاطر ، وذلك من خلال عرض لأهم الشخصيَّات التي سخر منها ابن الجوزي وانتقدها وبيَّن عيوبها ، وحاول إصلاحها من خلال النُّصح والإرشاد ، وأهم الموضوعات التي طرقها ابن الجوزي في السخرية من هذه الشخصيَّات .

المقدِّمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

يُعَدُّ كتاب صيد الخاطر من أهمِّ مؤلَّفات ابن الجوزي ، فقد تميَّز بتنوُّع مضامينه ، ومن أهم الموضوعات التي وردت فيه نقد ابن الجوزي لكثير من طوائف مجتمعه التي ظهر فيها الفساد ، وجانبت طريق السداد . فكان هذا البحث بعنوان : «السخرية عن طريق الشخصيَّات في كتاب صيد الخاطر» .

وقد بدأته بتمهيد كتبت فيه نبذة موجزة عن ابن الجوزي ، وعن كتابه صيد الخاطر ، ثم قسمته لمطلبين ، الأول : بحثت فيه معنى السخرية وبيَّنت أنَّ السَّاخرَ ناقدٌ حقيقي، لديه حساسية لنقائص المجتمع فيسخر بهدف الإصلاح ، محاولاً تطهير المجتمع من الظواهر السلبيَّة ، والمطلب الثاني : ذكرت فيه أهم الشخصيَّات التي سخر منها ابن الجوزي بهدف نقدها . ووضحت طريقة عرضه لها ، وختمته بذكر أهم النتائج التي توصَّل لها البحث .

تمهيد :

(نبذة موجزة عن ابن الجوزي) :

اسمه :

جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبدالله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي[١] .

كان ميلاده عام (٥٠٨هـ) تقريباً في بغداد ، وكانت وفاته عام (٥٩٧هـ) ، وكان علامة عصره في التاريخ ، والحديث ، وكثير من التصانيف[٢] .

من تصانيفه :

تميَّز ابن الجوزي بغزارة إنتاجه وكثرة مصنَّفاته ، شملت الكثير من العلوم والفنون ، فهو أحد العلماء المكثرين في التصنيف ، وفي التفسير ، والحديث ، والتاريخ ، واللغة ، والطب ، والفقه ، والمواعظ ، وغيرها من العلوم .

ومن أشهر تلك المصنَّفات : أخبار النساء ، بستان الواعظين ، تلبيس إبليس ، تاريخ بيت المقدس ، ذم الهوى ، زاد المسير في علم التفسير ، صفوة الصفوة ، صيد الخاطر ، كتاب الأذكياء ، كتاب الحمقى والمغفَّلين[٣] .

---

(١) انظر : تذكرة الحفَّاظ ، شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلميَّة - بيروت ، ١٣٤٢/٤ ، تحقيق : عبدالرحمن المعلمي ، ط١ .

(٢) انظر : الأعلام ، للزركلي ، ٣١٦/٣ ، دار العلم للملايين ، ط١ .

(٣) انظر : تذكرة الحفَّاظ ، ١٣٤٣/٤ ، الأعلام ، ٣١٦/٣ .

مما سبق يتَّضح لنا أنَّ ابن الجوزي كان علامة عصره في التاريخ والحديث والوعظ والجدل والكلام ، ولكنه مع ذيوع صيته وعلو مكانته كان زاهداً في الدنيا محباً للعلم ، وقد «حصل له من الحظوة في الوعظ ما لم يحصل لأحد قط ، وحضر مجالسه ملوك ووزراء بل وخلفاء من وراء الستر ، ويقال : في بعض المجالس حضره مائة ألف ، قيل : والظاهر أنه كان يحضره نحو العشرة آلاف مع أنه قال غير مرة أن مجلسه حزر بمائة ألف ، فلا ريب إن كان هذا قد وقع فإنَّ أكثرهم لا يسمعون مقالته»[٤] .

كتاب صيد الخاطر :

يعد كتاب صيد الخاطر من أهم مؤلفات ابن الجوزي ، فقد أودع فيه مؤلفه كثيراً من خبراته التي اكتسبها من خلال القراءة والتجربة والمشاهدة ، وكانت هذه الخواطر متنوعة المضامين ، فكان منها الدينية والاجتماعية والنفسيَّة والتربويَّة ، وكانت هذه الخواطر في كتابه بلا ترتيب موضوعي ، لا يربط بينها إلا فكر مؤلِّفها ، وقد كتبت بأسلوبٍ سهل ، وألفاظٍ بليغة .

هدف ابن الجوزي من دراسة صيد الخاطر :

لقد قام أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي بعمل تربوي في كتابه صيد الخاطر حيث تناول أهم الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفلسفيَّة في مجتمعه ، وعبَّر عنها من خلال دراستها وتحليلها ، والتركيز على إيجابياتها وسلبياتها ، بهدف معالجتها بعد مناقشتها وتداولها ، وكان في هذا بانياً على خبرته العميقة كإمام لعصره وواعظ ناجح على امتداد حياته .

فاشتمل الكتاب على موضوعات متنوعة تفيد القارئ ، وتعلي من شأن الإنسان وتميزه العقلي ، كما نقل صورة حيوية عن مجتمعه تبرز أهم الحقائق الإنسانية المتكررة في كل زمان ومكان[٥] .

قيمة كتاب صيد الخاطر :

من مظاهر قيمة الكتاب العلمية أنه يزخر بعدد كبير من أسماء الأعلام : من علماء وأطباء وزهَّاد ومؤرِّخين ، منهم من نقده أبو الفرج ، ومنهم من ردَّ عليه ، والقسم الثالث من استشهد بأقواله وتقريراته . وقد يذكر أعلاماً مغمورين عند علماء التراجم ، لكن دعاه إلى ذلك ما عرفوا به من زهد أو كرامة أو غرابة خبرة .

ومن مظاهر قيمة الكتاب العلميَّة أنه قيَّد إشارات تاريخيَّة ولمحات اجتماعيَّة لدولة بني العباس في منتصف القرن الخامس الهجري .

ومن مظاهر قيمة الكتاب العلمية أيضاً : غرسه لكثير من الحكم النافعة والأمثال السائرة[٦] .

ومن مظاهر قيمة الكتاب نقد ابن الجوزي للمجتمع فقد كان ابن الجوزي على علم ودراية بأحوال الناس ، وطبقات المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد كثرت في ذلك الوقت الطوائف والحركات والفرق وكان لكل منها آراء وأفكار مختلفة ، فكان لا بد لابن الجوزي أن يتعرَّض لطوائف مجتمعه المختلفة ، وأن يكون له موقف منها بين المعارض لها أو المؤيد .

---

(٤) تذكرة الحفَّاظ ، ١٣٤٥/٤ .

(٥) انظر بحث : كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي : تفاعل الأديب مع مجتمعه ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد : ٣٩ ، العدد : ٢ ، ٢٠١٢ ، بسمة أحمد الدجاني .

(٦) انظر : مرويات ابن الجوزي في صيد الخاطر ، دراسة نقديَّة ، أحمد بن مسفر العتيبي ، ١٤٣٠هـ ، ص٨ ، إشراف : محمد زين الهادي ، جامعة أم درمان .

ومن أهم الأساليب التي استخدمها ابن الجوزي في نقده لهذه الطوائف والفرق استخدام أسلوب السخرية عن طريق الشخصيَّات .

المطلب الأول : معنى السخرية :

السخرية : سَخِرَ منه وبه سخْراً ، وسَخَرَا ومَسْخَراً وسُخراً بالضم : هزئ به[٧] .
والسخرية : «نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي ، الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية ، الفردية منها والجماعية ، فالساخر يرصد ، ويراقب ما يجري من أخطاء ، ويستخدم وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها ، أو التقليل من قدرها ، أو جعلها مثيرة للضحك ، أو غير ذلك من الأساليب ، يقصد من ورائها محاولة التخلص من بعض الخصال والخصائص السلبية في المجتمع ، فالأدب الساخر أو الفن الساخر عموماً أحد علامات التحذير من أخطار الممارسات الخاطئة أو هو شكل من أشكال المقاومة»[٨] .
والحق أنَّ ابن الجوزي قد سخر في كتابه صيد الخاطر من كثير من طوائف مجتمعه كالعلماء والمتكلمين والصوفيَّة وغيرهم .
وانتقد عليهم تجاوزاتهم المنتشرة ، فكما هو معروف أن الساخر ناقد حقيقي ، لديه حساسية لنقائص المجتمع ، فيسخر بهدف الإصلاح ، لتكون العملية هنا في قمة العمل الإيجابي البنَّاء ، ومحاولة لطيفة ومهذَّبة ، الغرض منها تطهير المجتمع من الظواهر السلبيَّة التي تجانب التطور ، وتناهض الحركة نحو المستقبل ، والتخلص من العوامل التي تهدد الحياة بالتوقف أو البطء ، كالجهل والبخل والدعاوى الكاذبة ، وتهاجم ما يحتوي منها إعراضاً عن الحياة أو عجزاً عن التعامل معها ، كالغفلة والبلادة والخمول ، ذلك أن حرص المجتمع على كيانه يثير فيه روح المقاومة والدفاع عن النفس ، ليرد على المهاجمين والمنتقصين للأمة كلها من أعدائها أو الخارجين على قواعدها ونظامها من أبنائها ، لإعادتهم إلى الطريق الصحيح ، والتخلي عن عاداتهم المفروضة في مجتمعهم[٩] .

المطلب الثاني : تصنيف الشخصيات التي سخر منها ابن الجوزي بغرض نقدها :

وجَّه ابن الجوزي سهام نقده نحو شرائح مختلفة من المجتمع ممن رأى فيهم ملامح الفساد كالزهَّاد والصوفية والفقهاء والفلاسفة والوعاظ والولاة والسلاطين ، وسأعرض فيما يلي بإيجاز لسخرية و نقد ابن الجوزي لهذه الطوائف المختلفة :

١ ـ الزهَّاد :

يسخر و ينتقد ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر كثير من الأخطاء التي وقع فيها الزهَّاد ، ومن ذلك تحريمهم ما أحل الله ، يقول : «بلغني عن بعض زهاد زماننا أنه قدم إليه طعام ، فقال لا آكل ، فقيل له : لم؟ قال : لأن نفسي تشتهيه ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسي ما تشتهي .
فقلت: لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم ... الخ»[١٠] .

---

(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، د . ت ، ص٣٥٢ .
(٨) السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، إعداد : نزار عبدالله الضمور ، جامعة مؤتة ، ص٤ .
(٩) أنظر ، المرجع السابق . ص١١
(١٠) صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، تحقيق : د/عبدالرحمن هنداوي ، المكتبة العصرية - بيروت ، ط١ ، ص٤٩ .

ومن الأمور التي انتقدها ابن الجوزي على الزهَّاد ، جهل بعض المتزهِّدين ، حيث يقول : «روي عن بعض القدماء أنَّه قال لرجل : يا أبا الوليد! إن كنت أبا الوليد! يتورع أن يكنيه ولا ولد له ، ولو أوغل هذا في العلم ، لعلم أنَّ النبي كَنَّى صهيبًا أبا يحيى ، وكنَّى طفلاً فقال : يا أبا عُمَيْر ، ما فَعَلَ النُّغَيرُ» .
وقال بعض المتزهِّدين : قيل لي يومًا : كل من هذا اللبن! فقلت : هذا يضرني ، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة ، فقلت : اللهم إنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين ، فهتف بي هاتف : ولا يوم اللبن؟[١١] .
ومما ورد في كتابه أيضاً من سخرية على الزهاد ، نقده لهم بإهمال النظافة ، ومن ذلك قوله : وتلمَّحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل ، ومنهم من لا ينقي يديه في غسلهما من الزهم ، ومنهم من لا يكاد يستاك ، وفيهم من لا يكتحل ، وفيهم من لا يراعي الإبط ، إلى غير ذلك ، فيعود هذا الإهمال بالخلل في الدين والدنيا .
وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد ، وهم من أقذر الناس ، وذلك أنهم ما قوَّمهم العلم .
وأما ما يحكى عن داود الطائي أنه قيل له : لو سرَّحت لحيتك ، فقال : إني عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة ، والإخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة ، ولو كان مفيقًا لذلك لم يتركه ، فلا يحتج بحال المغلوبين[١٢] .
ومن الأمور التي انتقدها ابن الجوزي على الزهَّاد ما يدخله بعض المتزهدين في الدين مما ينفِّر الناس منه[١٣] . وحب الظهور[١٤] ، دفن الزهاد أنفسهم بالعزلة[١٥] ، الإعراض عن العلم[١٦] ، والزهاد المراؤون[١٧] ، وغير ذلك من الأمور العديدة التي انتقدها ابن الجوزي على الزهَّاد .
ونلاحظ أنَّ ابن الجوزي لم يكن يسخر من هذه الفئة ليعدِّد عيوبهم فقط ، بل نجده في كل خاطرة من الخواطر التي سخر فيها من الزهَّاد أنه بعد تعداد عيوبهم يذكِّرهم بالله ويرشدهم لطريق الصواب ليتَّخذوه لهم طريقاً ، ويبين لهم الخطأ ليبتعدوا عنه ، فقد كان نعم المرشد والناصح لهم .

٢ ـ المتصوِّفة :

لقد عاش ابن الجوزي في عصر انتشر فيه التيار الصوفي ، وظهر فيه كثير من بدع الصوفيَّة ، فما كان منه إلا أن وقف ضد هذا التيار ، وما ابتدعه المتصوِّفة بالسخرية منهم و نقدهم وتبيين أخطائهم .
ومن ذلك : «تأمَّلت أحوال الصوفية والزهَّاد ، فوجدت أكثرها منحرفًا عن الشريعة ، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأي ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت..
فجاء أقوام ، فأظهروا التزهد ، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم تطلبوا لها الدليل ، وإنما ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل ، لا أن يتبع طريقًا ، ويتطلب دليلها ، ثم انقسموا ، فمنهم متصنع في الظاهر ، ليث الشرى في الباطن ، يتناول في خلواته الشهوات ، وينعكف على اللذات ، ويرى الناس بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القميص ، وإذا نظر إلى أحواله ، فعنده كِبْرُ فرعون .
ينقلون عن بعض الصوفية : أنه قال : سرت إلى مكة حافيًا ، فكانت الشوكة تدخل في رجلي ، فأحكها بالأرض ولا أرفعها ، وكان عَلَيَّ مسح ، فكانت عيني إذا آلمتني ، أدلكها بالمسح فذهبت إحدى عيني .

---

(١١) صيد الخاطر ، ص٥٦ .
(١٢) انظر : صيد الخاطر ، ص٧٠ ، ٧١ .
(١٣) المرجع السابق ، ص٨٤ .
(١٤) المرجع السابق ، ص٨٤ .
(١٥) المرجع السابق ، ص١٧١ .
(١٦) المرجع السابق ، ص١٧٣ .
(١٧) المرجع السابق ، ص٤٣ ، ٢٩٣ .

وأمثال هذا كثير ، وربما حملها القصاص على الكرامات ، وعظموها عند العوام ، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعي وأحمد .
ولعمري ، إن هذا من أعظم الذنوب وأقبح العيوب[١٨] .
ومن أبرز العيوب التي سخر منها ابن الجوزي عند الصوفية تركهم للعلم .
يقول ابن الجوزي : «ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ما وجه هذا؟ فقال : أحسن ما نقول أن نسكت ، يشير إلى أن هذا جهل من فاعله .
وتأولت أنا لهم ، فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم فيه شيء من الرأي ، فما رأوا أن يعمل الناس به .
ولقد روينا في الحديث عن أحمد بن أبى الحواري : أنه أخذ كتبه ، فرمى بها في البحر ، وقال : نعم الدليل كنت ، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول .
وهذا إذا أحسنا به الظن ، قلنا : كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه ، فأما إذا كانت علومًا صحيحة ، كان هذا من أفحش الإضاعة .
وأنا وإن تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم»[١٩] .
مما سبق يتضح لنا أن ابن الجوزي ينكر على الصوفية إحراقهم لكتبهم ، إلا إذا كان هناك سبب يدعوهم لذلك كأن يكون فيها من الآراء ما تراجعوا عنه ، يقول : «كذلك من كان له رأي من كلامه ، ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلماء .
فأما المتزهدون الذين رأوا صورة فعل العلماء ، ودفنوا كتبًا صالحةً ، لئلَّا تشغلهم عن التعبد ، فإنه جهل منهم ؛ لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم ، مع الإقدام على تضييع مال لا يحل تضييعه»[٢٠] .
والحقيقة أن العلم ضرورة أخلاقيَّة ، لا ينفصل عن العمل ، بل هو أساس وضروري للعمل ، وابن الجوزي هنا يضع العلم في مكانه الصحيح ، فبالعلم يهتدي الناس إلى خالقهم ، ويعرفون الحلال من الحرام ، لذلك كان هجوم ابن الجوزي على المتصوِّفة في هجرهم العلم حاداً لا وسطية فيه ، فيعلل سلوكهم هذا بأنه من ناحية دالٌّ على اختيارهم طريق الظلمة ، ودالٌّ من ناحية أخرى على خوفهم من العلم أن يكشف عيوبهم ، وبعد أقوالهم عن الجادة ، ومخالفتها لمنهج الرسول ، مضافاً إلى ذلك أنه يرى في إحراقهم كتبهم وجه حرمة لإضاعة المال ، فإن كان فيه علم نافع كانت حرمة أخرى .
ولا يسع الباحث المدقق إلا أن يضم صوته في هذه المسألة إلى ابن الجوزي ، فقد حض الإسلام على طلب العلم ، والتماسه من مصادره ومظانِّه أنى وجدها..[٢١] .
ومن الأمور التي سخر منها ابن الجوزي عند المتصوفة التظاهر بالخشوع وغيره ، فنجده يقول : «إن وقعت المخالطة للمتزهدين ، فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لأنفسهم نواميس ، فلا يتنسمون ، ولا يخرجون إلى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد ، وكله نفاق ، وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه»[٢٢] .
وكذلك سخر منهم في بناء الأربطة دون المساجد ، فمما لا يخفى من أحوال الصوفية أنهم يتخذون الأربطة ويجعلونها علماً ومكاناً يجتمعون فيه ، وبين ابن الجوزي أنهم على خطأ «وبنت الصوفية أربطة ، فهي خوارج على المساجد ، وهي دكاكين كريهة ، يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة

(١٨) انظر : صيد الخاطر ، ص١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ .
(١٩) المرجع السابق ، ص٢٤ .
(٢٠) نفسه ، ص٢٤ .
(٢١) أبوالفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية ، ص٢١٦ ، د/آمنة محمد نصير ، دار الشروق ، ط١ .
(٢٢) صيد الخاطر ، ص٢٥٥ .

عليه ، ويعرضون بالقعود للصدقات ، ولأحوال الظلمة ، وقد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم ، وأكثرهم لا يصلي نافلة ، ولا يقوم الليل ، بل يهمهم المأكول والمشروب والرقص»[٢٣] .
ومن الأمور التي سخر منها ابن الجوزي عند المتصوِّفة لبس الصوف والمرقَّعات[٢٤] ، لما في ذلك من شهرة ورياء . وأيضاً نجده يسخر ممن يعاقب نفسه بترك الماء مدة ، وممن يمنع نفسه النوم ، ومن يمنع نفسه الطعام عقاباً لها حتى يهلك[٢٥] .
وأنكر عليهم ترك النكاح[٢٦] ، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي ورد ذكرها في كتاب صيد الخاطر ، بأسلوب جذَّاب ساخر وناقد بهدف الإصلاح .

٣ - الفقهاء :

لقد كان ابن الجوزي من "أعلام الفقهاء الذين أقبلوا على كتاب الله تعالى بتدارسه ، ويصنف في تفسيره العديد من المصنَّفات ، ثم تزوَّد بأوفر الزاد من حديث رسول الله وطوَّف بسير السلف وأخبار الأولين ، وجمع من ذلك فأوعى ، فمقامه إذن مقام الصدارة بين علماء الحديث وفقهاء الأثر"[٢٧] .
وينصح ابن الجوزي العلماء والفقهاء أن يأخذوا من كل علم بطرف ، ويكونوا واسعي الثقافة فيقول : «وإنما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفًا ، ثم يهتم بالفقه ، ثم ينظر في مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه ، والمعرفة به ، والحب له»[٢٨] .
ونجد ابن الجوزي يسخر من كل من انشغل بالعلوم الأخرى عن الفقه ، فيقول : «وما أقبح القارئ يسأل عن مسألة في الفقه ، وهو لا يدري ، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق في روايات القراءات ، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ، ويكثر، ولا ينظر في فهم ما كتب .
وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة في الصلاة ، فلا يدري ما يقول ، وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو[٢٩] .
ومن أول الأمور التي سخر منها ابن الجوزي على الفقهاء ، جهل بعض الفقهاء ، يقول : «ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظمه ، ونزوره ، أنه كان على شاطئ دجلة ، فبال ، ثم تيمَّم ، فقيل له : الماء قريب منك ، فقال : خفت ألَّا أبلغه ، وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل ، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا عنه مثل هذا الحديث ، تلاعبوا به، من جهة أنَّ التيمم إنما يصح عند عدم الماء ، فإذا كان الماء موجودًا ، كان تحريك اليدين بالتيمم عبثًا ، وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجودًا ، فلا فعل للتيمم ، ولا أثر حينئذ .
ومن تأمل هذه الأشياء ، علم أن فقيهًا واحدًا - وإن قلَّ أتباعه ، وخفت إذا مات أشياعه - أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبرُّكًا ، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى . وهل الناس إلا صاحب أثر فنتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به؟ ، نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الأسلاف تقليدًا لهم بغير دليل!»[٣٠] .
وسخر منهم أيضاً في فتوى الناس بغير علم ، وذلك فقط لأنهم يأنفون من قول لا أدري .

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص٢٥٥.
(٢٤) المرجع السابق ، ص٢٥٥.
(٢٥) المرجع السابق ، ص٩٥ .
(٢٦) المرجع السابق ، ص١٧٠ .
(٢٧) ابن الجوزي وآراؤه الكلامية ، ص٥٩ .
(٢٨) صيد الخاطر ، ص٢٣٤ .
(٢٩) صيد الخاطر ، ص٢٣٤ .
(٣٠) صيد الخاطر ، ص٢٥ .

«إنَّ كثيرًا من العلماء يأنفون من قول : لا أدري ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس ، لئلا يقال : جهولًا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا ، وهذا نهاية الخذلان»[٣١] .
ومما سخر به ابن الجوزي على بعض الفقهاء ، الجهل وحبُّ الرئاسة ، وإيثار الغلبة في الجدل[٣٢] .
كذلك أنكر ابن الجوزي عليهم مخالطتهم للسلاطين ، والتزيي بزيهم ، وأخذ بعضهم الذهب والفضة وأشياء كثيرة محرَّمة ، وصحبة المردان[٣٣] .
وقد نصح ابن الجوزي هذه الفئة بالقناعة ، والبعد عن أرباب الدنيا ، والصبر على شظف العيش ، والبعد عن أرباب الهوى فما يتم دين إلا بذلك .

٤ ـ الفلاسفة :

سخر ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر من بعض أفكار الفلاسفة وآراءهم وعقولهم ، ومن ذلك :
«لقد حكى ابن عقيل عن أبي المعالي الجويني : أنه قال : إن الله تعالى يعلم جمل الأشياء ولا يعلم التفاصيل ، ولا أدري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسكين حتى قال هذا ، وكذلك أبو حامد حين قال : النزول التنقل ، والاستواء مماسة ، وكيف أصف هذا بالفقه ، أو هذا بالزهد ، وهو لا يدري ما يجوز على الله مما لا يجوز؟! ولو أنه ترك تعظيم نفسه ، لرد صبيان الكتاب رأيه عليه ، فبان له صدقهم»[٣٤] .
ومن أضاليل الفلاسفة التي أنكرها ابن الجوزي وسخر منها ، أن الفلاسفة وقعوا في الخطأ بسبب قياسهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، يقول : «أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق ، فإن الفلاسفة لما رأوا إيجاد شيء لا من شيء ، كالمستحيل في العادات ، قالوا بقدم العالم ، ولما عظم عندهم في العادة الإحاطة بكل شيء ، قالوا : إنه يعلم الجمل لا التفاصيل! ولما رأوا تلف الأبدان بالبلاء ، أنكروا إعادتها ، وقالوا : الإعادة رجوع الأرواح إلى معادنها ، وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين ، خرج إلى الكفر»[٣٥] .
وقد سخر ابن الجوزي من الفلاسفة على ما يظهر منهم من تسخط بالأقدار ، وقد وصفهم ابن الجوزي بالمغفَّلين ، يقول : «رأيت كثيرًا من المغفلين يظهر عليهم السخط بالأقدار ، وفيهم من قلَّ إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج إلى الكفر ، ورأى أنَّ ما يجري كالعبث ، وقال : ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد ، والابتلاء ممن هو غني عن أذانا ، فقلت لبعض من كان يرمز إلى هذا : إن حضر عقلك وقلبك ، حدثتك ، وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك ، من غير نظر وإنصاف ، فالحديث معك ضائع . ويحك! أحضر عقلك! واسمع ما أقول : أليس قد ثبت أنَّ الحق سبحانه مالك ، وللمالك أن يتصرف كيف يشاء! أليس قد ثبت أنه حكيم ، والحكيم لا يعبث!..»[٣٦]الخ
ومما سبق يتَّضح لنا أن ابن الجوزي قد سخر من كثيرٍ من أفكار الفلاسفة وتجاوزاتهم العقليَّة ، وأخذ يرشدهم ويبين لهم الصواب لعلهم يهتدون .

٥ ـ الوعَّاظ :

لقد اهتم ابن الجوزي بنقد الوعَّاظ ، وبيان الأخطاء التي يقعون فيها ومحاولة إصلاحها ، ومما لا يخفى علينا أنَّ ابن الجوزي كان واعظاً ، فقد وعظ الناس في صباه وشبابه وشيخوخته ، فهو يعلم تماماً أهمية

---

(٣١) المرجع السابق ، ص١٥٨ .
(٣٢) المرجع السابق ، ص٣٣١ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص٢٧٣ .
(٣٤) صيد الخاطر ، ص٨٨ .
(٣٥) صيد الخاطر ، ص٢٠٣ .
(٣٦) صيد الخاطر ، ص٢٠٧ .

الوعظ في المجتمع وما يجب أن يكون عليه الواعظ ، وما يجب أن يتجنَّبه ويبتعد عنه ، ومما سخر به وانتقده ابن الجوزي عليهم قوله : «تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ ، يعتقدها العوام وجُهَّال العلماء قربة ، وهي منكر وبعد ، وذاك أنَّ المقرئ يطرب ، ويخرج الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ، فيصفق هذا ، ويحرق ثوبه هذا ، ويعتقدون أن ذلك قربة .
ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى ، توجب طربًا للنفوس ونشوة ، والتعرض لما يوجب الفساد غلط عظيم ، وينبغي الاحتساب على الوعاظ في هذا»[٣٧] .
ومما سخر به ابن الجوزي عند الوعاظ أيضاً : «وفي الوعّاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقي الذي لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق أثوابه ، دعوى لمحبة الله تعالى ، ومنهم من يتخايل بوهمه شخصًا هو الخالق ، فيبكيه شوقه إليه ، لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايلونه المعبود ؛ لأن المعبود لا يقع في خيال .
وبعد هذا، فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بمر الحق ، إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم ، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج إلى صناعة ، فإنَّ من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر»[٣٨] .
فمما سبق يتَّضح لنا أنَّ ابن الجوزي كان حريصاً على تقويم الوعاظ ، ومحاولة إصلاح الأخطاء التي يقعون فيها ، وما كان منه ذلك إلا لمعرفته بالدور الذي يقوم به الواعظ في المجتمع ، وأن الواعظ ينبغي أن يكون قدوة لغيره ، فالمجتمع يتأثر بسلوكه وطريقته سلباً وإيجاباً .

٦ ـ الولاة والسلاطين :

هناك بعض الأمور التي سخر منها ابن الجوزي عند الولاة والسلاطين ، ومن ذلك :
قوله : «أجهل الجُهَّال من آثر عاجلًا على آجل لا يأمن سوء مغبته ، فكم قد سمعنا عن سلطان، وأمير ، وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها ، ولم ينظر في حلال وحرام ، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ.. ، ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ، ويعلم وجه أخذها ، لتسلم له عاقبة لذته ، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار ، وهل عد في العقلاء قط من قيل له : اجلس في المملكة سنةً ، ثم نقتلك؟! هيهات ، بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة ، بل سنين ، ليستريح في عاقبته»[٣٩] .
ومما سخر به و انتقده ابن الجوزي عليهم أيضاً ارتكابهم المحرَّمات وأمور توجب الحدود ، كشرب الخمر والفسق والظلم وعدم إقامة الحد عليهم ، وتعطيل الحدود احتراماً لمناصبهم[٤٠] .
وهكذا نجد أنَّ ابن الجوزي يسخر من الولاة والسلاطين في بعض الرذائل التي يرتكبونها والأخلاق الفاسدة التي يتسمون بها ويقوم بوعظهم لعلهم يهتدون .

٧ ـ علماء الحديث :

مما سخر به ابن الجوزي وانتقده على علماء الحديث تسامحهم بالغيبة ، فهو يقول : «لقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل ، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة ، ويسرعون بالجواب ، لئلا ينكسر الجاه ، وإن وقع خطأ»[٤١] .

---

(٣٧) صيد الخاطر ، ص٧٨ ، ٧٩ .
(٣٨) صيد الخاطر ، ص٧٩ .
(٣٩) صيد الخاطر ، ص١٣٥-١٣٦ .
(٤٠) صيد الخاطر ، ص١١٨ .

فنجد ابن الجوزي يسخر منهم و ينتقد عليهم بعض العلل الأخلاقية والرذائل كالغيبة ، وطلب الأجرة على قراءة الحديث ، والتسرع في الإجابة على المسائل ، وعدم الاحتراز عن الخطأ حتى لا ينكسر جاههم . فهذه جملة من الأمور التي ينبغي أن يبتعد عنها علماء الحديث .

وبعد هذا العرض الموجز لأهم الشخصيَّات التي سخر منها ابن الجوزي وانتقدها نجد أنَّ ابن الجوزي اتخذ دور المصلح العالم بعيوب مجتمعه ، فحدَّد طرق علاجها ، وسبل مكافحتها ، وقدَّم العديد من النصائح لتلك الطوائف والشخصيَّات التي انحرفت عن طريق الصواب ، ليستقيم المجتمع .

ومما لا شك فيه أنَّ السخرية عن طريق الشخصيَّات ونقد طوائف المجتمع المختلفة تحتاج إلى الخبرة بالمجتمع ، و الدراية بأحواله ، والمعرفة بحاجات هذا المجتمع ، الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتمييز واقعه من خلال المعايشة لطبقاته المختلفة ، وهذا ما كان ينطبق تماماً على ابن الجوزي .

ونجد أنَّ أهمَّ الموضوعات التي طرقها ابن الجوزي في السخرية من هذه الشخصيَّات تنوَّعت بين العيوب الخلقيَّة والنفسيَّة كالغرور وحب الظهور والتهكم السياسي بنقد الحكام وانحرافاتهم وطرق معيشتهم . والسخرية الاجتماعية بنقد العيوب التي تهدد المجتمع .

ومما تجدر الإشارة له أن لغة ابن الجوزي في خواطره في صيد الخاطر التي انتقد بها طوائف مجتمعه كانت لغة سهلة وقويَّة ، لكنها عميقة ممتنعة أحيانا ، فهو يختصر بعض الجمل تارة ، ويشبه تارة ، ويستعير تارة ، ويكني تارة رابعة ، وقد يكسو اللفظ في كثير من الأحايين بمفردة مليحة غريبة ليشد الأبصار والبصائر إلى معناها[٤٢] .

الخاتمة :

يخلص البحث إلى عدة نتائج .

١ - يُعد كتاب صيد الخاطر من أهم كتب ابن الجوزي ، وقد تنوَّعت مضامينه ، فكان منها الدينية والاجتماعية والنفسيَّة والتربوية .

٢ - من أهم الأساليب التي استخدمها ابن الجوزي لنقد مجتمعه أسلوب السخرية عن طريق الشخصيَّات .

٣ - تُعد السخرية نوعٌ من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية .

٤ - أهم الشخصيَّات التي سخر منها ابن الجوزي وانتقدها هم الزهاد والصوفية والفقهاء والفلاسفة والوعاظ والولاة والسلاطين وعلماء الحديث .

٥ - لم يكن نقد ابن الجوزي لطوائف مجتمعه ليبين عيوبهم فقط ، بل نجده نعم الناصح والمرشد لهم لطريق الحق والصواب .

٦ - أهم الموضوعات التي طرقها ابن الجوزي في السخرية من هذه الشخصيَّات تنوَّعت بين العيوب الخلقية والنفسية ، والتهكم السياسي والسخرية الاجتماعية .

٧ - لغة ابن الجوزي في نقده وسخريته من طوائف مجتمعه الشاذة كانت سهلة قوية ، وأسلوبه بلاغي متين ، استخدم فيه الاستعارة والكناية والتشبيه .

---

(٤١) صيد الخاطر ، ص١١٢ .

(٤٢) مرويات ابن الجوزي في صيد الخاطر ، ص١٠ .

فهرس المصادر والمراجع :

الكتب :

- أبوالفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية ، د/آمنة محمد نصير ، دار الشروق ، ط١ .
- الأعلام ، للزركلي ، دار العلم للملايين ، ط١ .
- تذكرة الحفَّاظ ، شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلميَّة - بيروت ، تحقيق : عبدالرحمن المعلمي ، ط١ .
- صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، تحقيق : د/عبدالرحمن هنداوي ، المكتبة العصرية – بيروت ، ط١ .
- لسان العرب ، ابن منظور

الأبحاث والرسائل العلمية :

- السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، إعداد : نزار عبدالله الضمور ، رسالة دكتوراه ، جامعة مؤتة .
- كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي : تفاعل الأديب مع مجتمعه ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد : ٣٩ ، العدد : ٢ ، ٢٠١٢ ، بسمة أحمد الدجاني
- مرويات ابن الجوزي في صيد الخاطر ، دراسة نقديَّة ، أحمد بن مسفر العتيبي ، ١٤٣٠هـ ، إشراف : محمد زين الهادي ، جامعة أم درمان .